

قفل باب الاجتهاد : نعمة أم نعمة ؟

أوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقه أهله في الدين ، فسأله الرسول كيف تقضى ؟ فقال معاذ : أقضى بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسوله ، فإن لم أجد ، أجتهد رأيي . وقد حمد رسول الله ، الله تعالى ، إذ وفق معاذاً إلى ما يرضى الله ، ويرضيه عليه الصلاة والسلام .

وقال الإمام علي : قلت : يا رسول الله ، ينزل بنا من الأمور ما لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ، قال : اجمعوا له المؤمنین من العالمين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ، عندما ولاه القضاء ، اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور على ذلك .

وقال عمر للقاضي شريح : اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ، فإن لم تعلم كل أفضية رسول الله ، فاقض بما استبان لك من أئمة المجتهدين ، فإن لم تعلم ، فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

وفي هذه الأقوال جميعاً سند الاجتهاد ، وسند اجتماع المجتهدين ، كمصدر من مصادر الأحكام في الشرع الإسلامي . والاجتهاد ، أي إعمال الفكر واستفراغ الجهد ، للوصول إلى حكم الحالة التي لم يرد في شأنها نص في القرآن أو في السنة ، أمر تستوجبه الحياة نفسها ، فكما يقول الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » : الحوادث والوقائع في العبادات مما لا يقبل الحصر والعدد ، ويعلم قطعاً أنه لم يرد في كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إن كانت متناهية فالوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجبا الاعتبار حتى يكون بصدد كل واقعة اجتهاد .

ولم يجادل أحد في أن صحابة رسول الله اجتهدوا ، والرسول بين
 ظهرائيهم . وقد أعلن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه سيجتهد برأيه ،
 والرسول على قيد الحياة . ثم إن الصحابة اجتهدوا بعده ، فقرروا وفعلوا ،
 ما لم يأت به نص القرآن والسنة ، ومن أعظم ما فعلوه ، جمع القرآن في
 مصحف ، ثم حمل الناس على مصحف واحد .

واجتهاد الخليفة الثانى مشهور معلوم ، منه أنه عطل حكم المؤلفه
 قلوبهم ، وفيه نص في القرآن ، وعطل حد السرقة في واقعة غلمان أبي
 بلتعة ، كما عطله في عام الحجاعة ، كما نهى أمراءه عن زواج الكنانيات ،
 وهو جائز . وقد أجاز أصحاب الرسول ، كسعيد بن المسيب وربيعة بن
 عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصارى التسعير ، في حين أن الرسول
 امتنع عنه ، وقال : « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، وإنى
 لأرجو أن ألقى الله وليس يظالبنى أحد بمظلمة في دم ومال » .

وجملة القول أن المسلمين اجتهدوا وقاسوا الأحوال الجديدة ، والأمور
 المستحدثة ، والوقائع غير المسبوقة ، على الأحوال والأمور والوقائع التى
 ورد فيها نص في القرآن والحديث ، وأنهم وأصلوا اجتهداهم ، فتعددت
 طرائقه ، ولولا أن المسلمين اجتهدوا ، وسابروا ما أتت به فتوحهم
 الفواسقة ، وحضارتهم المردهرة ، وثقافتهم التى تعددت رواقدما وترامت
 آفاقها ، من علاقات إنسانية جديدة ، ووجه للنشاط الاقتصادى
 والاجتماعى والفكرى لم يكن لهم بها ههد من قبل ، لضمرت شريعتهم ،
 وحقت منابعمها ، ولتقلص ظالمها ، فأظلمت شرائع غيرهم كما حدث لهم
 ذلك بعد حين . ويفضل هذا الاجتهاد بقيت الشريعة الإسلامية فنية ؛
 يتجدد رواؤها ، ويزداد نطاقها اتساعاً .

وقد اشترط المسلمون ، فيمن يتصدون للاجتهاد من علمائهم ،
 شروطاً ، حتى لا يتصدى لهذه المهمة العظيمة ، من ليسوا أهلاً لها ،
 فكان لا بد للمجتهد من توافر العلم باللغة العربية لغة القرآن والسنة ،

والعلم بقواعدها ونحوها وصرفها ، وأساليب العرب في البيان ، على أن يكون عاقلاً عدلاً متصفاً بالأخلاق عارفاً بآيات الأحكام في القرآن وأسباب النزول ، والناسخ منها والمنسوخ ، وأحاديث الأحكام إلى آخر ما اشترطوه في هذا الطراز الرفيع من العلماء .

ثم اشترط المسلمون في عصور تدهورهم للإجماع صورة تجعله مستحيلاً إذ اشترطوا لصحته اجتماع كل مجتهدى العالم الإسلامى ، بعد معرفتهم والوقوف عليهم ، ثم معرفة رأيهم جميعاً في المسألة المعروضة عليهم واستمرارهم على رأى واحد ، حتى صدور هذا الرأى منهم . والمسلمون لم يتشددوا هذا التشدد ، عن حرص على الدين ، أو اتقاء للمزالق ولا رغبة في جمع الكلمة ، وإنما فعلوا ذلك لأنهم فقدوا الثقة في أنفسهم ، فتهيبوا الاضطلاع بالمسئولية ، وآثروا التقليد والمحاكاة ، على التفكير والابتكار والتجديد ، قالابتكار مشقة ، والتجديد معاناة ، والتفكير له ضرائبه من درس وسهر ، ومراجعة ومقابلة . والتقليد والنقل عن الآباء والتشبث بالقديم ، سنة الأمم الضعيفة وصفة الجماعات المغلوبة على أمرها (قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)^(١) ، (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)^(٢) .

وقد كنا نذكر هذا الجمود الذى أصاب التفكير الإسلامى بعامه ، وتفكير علماء الشرع الإسلامى بخاصة ، فتذهب أنفسنا حسرات عليه ، حتى أدركنا أن التشريع الإسلامى ، ليس إلا انعكاساً لحياة المسلمين ، فلما ضعف أمرهم ، واستكانوا لحكم الأجنبي وقبلوه ، وتسابق علماءؤهم على ترضى السادة الجدد ، والسير في ركابهم ، تخلت عنهم صفات المجتهدين ، وأعوزتهم وسائلهم ، في حاجتهم إلى الاجتهاد ، وقد سادهم الإعجاب بكل ما هو أجنبي وأقروا بالعجز عن منافسة الحضارة الجديدة ، وأهابوا بأولادهم أن ينجوا بأنفسهم من الانقطاع للدراسة

(١) سورة البقرة : ١٧٠ . (٢) سورة المائدة : ١٠٤ .

الشرع الإسلامى وتعليمه والقضاء به ، لأنه لا يدرى رزقاً ، ولا يكسب جاهاً ، ولا يحقق نفوذاً .

وكان الشرع الإسلامى قد خرج من حياة المسلمين أنفسهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح تراثاً ينظر فيه ، كما ينظر إلى كل قديم عزيز فقد صلته بالحياة ، وإن بقيت عند الدارسين المتخصصين أشياء علماء الآثار .

ولما انقطعت الصلة بالشرعية الإسلامية كقانون ، انبعث من الحياة القوية ، التى سادت المدن ، وأخرجت أكبر العقول وأضافت إلى العلم النظرى والتطيقى الكثير الخالد لارتفاع شأن علمائها ، قلما دهم الحكم الأجنبى بلاد المسلمين ، صغر قدر هؤلاء العلماء عند الناس ، وصغروا عند أنفسهم ، فبات تكليفهم بالاجتهاد ، لونهاً من العبث ، الذى لا يأخذونه هم بالذات مأخذ الجد . حسبك أنه كان تقليداً فى عهد الحكم البريطانى أن يحشد علماء المسلمين فى كل مصر ، فى ليلة القدر كل سنة فى دار المعتمد البريطانى ، لندرى أى درك وصل إليه الحال .

إذا كان هذا الجو ، جو الاجتهاد ، الذى هو صراع ومكابدة ، ومسئولية وثقة بالنفس ، وحرص على الشرف ، وكره للذل ، وعزم على مقاومة الباطل ، وتنديد بالغايب ، ووقوف فى وجه الفاسد وجمع لكلمة الأمة حول راية القتال ، وإيمان بالدين الخالص ، ورغبة فى التضحية والبذل ، لم يكن الاجتهاد قط ، كلاماً يقال ، ولا فتوى يفتى بها وتكتب على ورق ، ولا حكماً يصدر فى قضية ، وإنما كان أولاً وقبل كل شىء علماً واسعاً تعززه نفس قوية . ولأمر ما عذب أئمة المسلمين ودخلوا السجن ، أمثال أبى حنيفة ومالك .

فرحمة الله لهذه الأمة ، إن علماءها حينما لم تتوافر فيهم ، ولا فى الجو الذى كانوا يتنفسون فيه شرائط الاجتهاد ، ردوا أنفسهم عنه إلى أن تدور رحى القتال ضد الغاصبين ، فتجربى فى العرق دماء ، تجعل الاجتهاد حتماً لا مفر منه ، ونفعاً محضاً لا شر فيه .